

وأرأف ، فَأُثْمَنَ ربه ، واتهم نفسه ، وقال : ربي أعلم بما
اختار لك ، فإن لم أصلح على اختياره وتقديره ، لم أصلح
على اختيارك وتقديرك أيتها النفس ، واختيارك أنزل بي هذه
البلية لإحدى خلال : إما تكفيرًا لخطيئة استوجب بها هذا
العذاب الأكبر .

وإما رفع لي درجة يقربني إليه ، وإما بينهما لأمر عظيم ،
أو عصمني من ذنب ، أو صرف عني داهية ، أو عاجلني
بعقوبة ، لأن يرفع عني عقوبة الآخرة ، ففي كل هذا خير .

وأما العارف فإنه أجمله ، فقال : هو مشيئة ربي ،
فمشيئته أجلّ عندي ، وأعظم على قلبي من نفسي وجميع
جوارحي ، وهؤلاء قوم ولهت قلوبهم لديه ، فصارت أحكامه
التي رضيها لهم مُنية قلوبهم ، من إجلالهم له وإعظامهم .

صفة الموقن

عدنا إلى صفة الموقن :

وإذا ذكر الرزق وثق بالضمان ، واطمأن بوفائه ، فإن
طَلَبَ طَلَبَهُ مع سكون القلب ، على حد ما أمر به ، فإذا

عرض له في ذلك شيء يكون فيه نقصان من حظه من الله تعالى ، أعرض عنه ، وتوجه إلى ربه ، ينتظر من أين يُفتح . والعارف تخلص من هذا كله من الضمان والوفاء ، وشغل عن طلب الرزق بالرزاق ، فقلبه في البحر الأكبر ، وقد تعلق قلبه به ، فإذا ذكر المنة غرق ، وإذا ذكر العافية قلق ، وإذا ذكر حلول الأجل شرق ، وإذا ذكر العيوب عرق ، وإذا ذكر الرعاية والكلاءة ومق^(١) ، وإذا رأى اللذات في الطاعة ممق^(٢) ، وإذا ذكره تنق^(٣) .

وإذا حن إليه واشتاق غرق في أثقال المنة ، وعظمت آماله فيما لديه ، وقلق من خوف زوال الإيمان ، وشرق بغصته من حلول الأحزان ، لطول الحبس عنه في دار الدنيا ، وغرق من الحياء لما يرى من عظيم بره ولطفه ، وجميل نظره ، وحسن عوائده ، ومن جميل صنائعه ، ومن هرب النفس منه ، وإعراضه عن حقوقه ، وإظهار جفوته .

وهو من عظيم عطفه عليه في كلاءته ورعايته ، واصطناعه إليه ، ومثق لما يرى من فتح باب الدعة ، وإكرامه بالطاعة ،

(١) ومق : أحب .

(٢) ممق : فرح .

(٣) تنق : شبع وارتوى ، وتأني بمعنى حزن وغضب .

وتقريبه إياه بما يمكن له من الخدمة ، وتثق من طول الغربة ،
وشدة الحنين ، فأنسه به ، وسكونه إليه ، وهو ملجؤه
وثقته ، وكهفه وسنده ورجاؤه .

لا يهتمه على نفسه ، ولا يسىء به الظن فى نوائبه ، بحسن
معرفته بربه أنه غفور رحيم ، ودود ، حميد ، مجيد ، واحد ،
صمد ، قيوم ، كفيل ، وكيل ، جواد ، كريم ، حنان ،
منان ، حى ، لا يموت ، لطيف بعباده ، بر رحيم ، شكور ،
غفور ، حلیم ، عَفُوٌّ ، رِعُوفٌ ، معروف بالمعروف ، محسن
مفضل ، فضله عظيم ، إحسانه دائم ، كرمه ظاهر ، فاطمان
قلبه .

كما وصفه ربه ، فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ
قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ^(١)
وقال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ ^(٢) إلى آخر

(١) سورة الرعد - الآية رقم ٢٨ . والمعنى : إن هؤلاء الذين يرجعون إلى الله
ويقبلون على الحق هم الذين آمنوا ، وهم الذين تسكن قلوبهم عند ذكر الله
تعالى بالقرآن وغيره ، وإن القلوب لا تسكن إلا بتذكر عظمة الله وقدرته ،
وطلب رضاه بطاعته (المنتخب ص ٣٥٨) .

(٢) سورة الزمر - من الآية - رقم ٢٣ .

الآية ، فبين أن القشعريرة^(١) إنما هي من الخشية ، فإذا ذكروه في كرمه وجوده ، ورأفته ، ورحمته ، لانت جلودهم وقلوبهم .

قال له قائل : فما بالناس نسمع هذا العلم فنفهمه ، ونَعْقِلُهُ ، ولا يبقى على القلب منه شيء ؟ .

قال : لأن نيران الشهوات في الخوف قد التهمت ، فهي نيران سود ، مظلمة بالهوى ، وهي مؤدية إلى نار الله الكبرى ، فإذا التهمت ارتفع إلى القلب ، وأحرق تلك الأنوار ، فخلا القلب من الموعظة والعلم الذى عليه ، وهي شبيهة بالنار التي تلهب حمرتها ، فتحتاج إلى ماء كثير حتى تطفئه ، كلما ألقيت عليه قبضة من شيء أو رششت عليه قليل ماءٍ ، انطفأ قليلاً ثم التهب .

فكذلك صاحب الشهوة ، إذا سمع الموعظة ذَبَلَ قلبه ، وتخسفت نفسه ، لما يصل إليه من الخوف ؛ لأن الوعيد مما تنكسر به النفس ، وتحمد شهواتها .

(١) القشعريرة من اقشعر الجلد ، إذا اضطرب وقام شعوره عليه « الفيروزابادى - وبصائر ذوى التمييز ج٤ ص ٢٧٠ » .

ألا ترى أن الرجل يكون في لذة من لذات الدنيا ونشاط ،
فإذا بلغه وعيد من السلطان انكسر وذهب نشاطه ،
فوعيد الله تعالى لو خلص إلى القلب ، لكانت النفس
والشهوات أشد انكسارًا ، ولكن لا يصل ذلك إلى القلب ،
فهو صلب أبدًا ، فرح مرح ، أشر بطر ، فهو ينور بلهب .

فإنما يُطفأ بالماء الكثير الغالب ، وهو العلم المؤدى إلى
الخوف والوعيد ، وليس يوجد هذا ، فما الحيلة في ذلك ؟

قال : إنّا لا نعلم له حيلة ، إلّا أن يمنع من إلقاء الخطب
عليه ، فإنه متى زاده وقودًا اتقد ، وثار والتهب ، وقوى .
ومتى ما حبس عنه وقوده خمد ، حتى يصير رمادًا ويذهب
حر التنور ، كذلك هاهنا ، يحبس عنها الشهوات حتى
تخمد ، فتذهب فورتها والتهابها ، فحينئذ تتخلص أنوار القلب
ويقوى ، ويعمل العقل عمله .

ووجدنا في مبلغ علمنا أن الذى جاء في الحديث عن
رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « أن النار تنادى يوم
القيامة للمؤمن ، جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهى » . .

هذا معناه أن من عالج شهوات نفسه وهواه ، حتى يقهرها
وتتخلص أنواره ويقوى على قلبه ، فقد أطفأ نور قلبه نيرانَ
شهواته المظلمة بالهوى ، فهو النور يوم القيامة ، حتى يطفى
ذلك النور لهب النار عنه .

ومن لم يعالج هذا من نفسه ، وخرج من الدنيا مع هذه
النيران سوداء مظلمة ، خفت من ألا يقوى نوره على أن
يطفى لهب النيران على الصراط .

لأنه لم يكن له نور على القلب يطفى نيران شهواته ،
وخرجت منه أعمال البر محترقة مختلطة برياء ؛ لأن عامة ما
يَصِلُ من الطاعات ، إنما يُعْمَلُ بهواه ، وبما يخف عليه ، وبما
تنشط له النفس وتستحليه ، لا ينظر إلى ما يختار الله له ، ولا
يقبل علمه من ربه ، إنما هو عامل لربه على التملك والاعتدار ،
ولا خيار للأحوال ، حتى ربما حمله ذلك على ترك الواجب ،
في جنب ما يتطوع به ، وهذا موجود في الخلق .

ترى الرجل يصلى بالليل ، ويعق والديه ، ويصوم النهار ،
ويسوء خلقه ، في شأن فطوره ، وسحوره ، ويغتاب الناس ،
وينفق في أعمال البر ، ويكتسب الشبهات ، ويعود المرضى ،
وينقل الجنائز ، ويؤذى المسلمين ، ويطلب عوراتهم ، ويود

الأبعد ، ويقطع الأرحام ، فهذا رجل جاهل بربه ، يعبد
بالهوى ، كلما هوى أمراً ركه ، وكذب فيما يقول : إني
أريد به الله .

وإنما أتى فساد الخلق من إهمال النفس وترك تأديبها ، وقلة
النظر فى أمر الله تعالى ، وجهلهم به ، فلو عرفوه لاستراحوا
من خدع النفس ودواهيها ؛ لأن النفس إنما تطمع بمخادعة
من يجهل ربه ، فأما العلماء بالله ، العارفون بالنفس ،
والشيطان أقل وأذل هناك أن يطمعها فى خدعهم لأن النفس
إنما تظلم وتوسوس على القلب الشهوانى الذى قد أسره
الهوى . وليس لنور الطاعة فى القلب ، ما يغلب الهوى
والشهوات ، وإنما القوة الغالبة ، نور المعرفة ، فمن استنارت
معرفته ، كانت أموره على بينة ومعينة ، وذلك قوله تعالى :
﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ
رَّبِّهِ ﴾^(١) . . . الآية .

فوصف رسول الله ، صلى الله عليه وسلم علاماته بالإناابة
إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد

(١) سورة الزمر : الآية - رقم ٢٢ .

للموت قبل نزوله ، ومنه قول حارثة : كأني أنظر إلى عرش
ربي بارزًا ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :
« عرفت فالزم ، من سره أن ينظر إلى عبد نور الله الإيمان
في قلبه ، فلينظر إلى هذا » .

وما جاء عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال
له رجل علّمني غرائب العلم .
قال : « ما صنعت في رأس العلم ؟ عرفت الرب ؟ »

قال : نعم .

قال : « فما صنعت في حقه ؟ »

قال : ما شاء الله .

قال : « هل عرفت الموت ؟ »

قال : نعم .

قال : « فما أعددت له ؟ » .

قال : ما شاء الله .

قال : « اذهب فتعلم رأس العلم ، ثم تعال أعلمك
غرائب العلم » .

أفلا ترى أنه أمره بتعلم المعرفة ، وسماء رأس العلم ، فقد كان مسلماً ؛ لأنه سألته أن يعلمه غرائب العلم ، وأنه كان أخير بتلك المعرفة .

فلما سألته : هل عرفت الرب ؟ أجابه عن معرفته ، فلما سألته عن الامتحان عما صنع في حقه ، انقطع الرجل ، فقال : ما شاء الله .

وما جاء عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، حدثنا بذلك صالح بن محمد قال : حدثنا القاسم العمري ، عن عاصم بن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، عن أبيه ، أن رجلاً أتى على رجل عند عمر ، رضى الله عنه ، فقال : صحبتك في سفر ؟ فقال : لا ، قال : فأتممتك على شيء ؟ قال : لا ، قال : ويحك ؟ لعلك رأيته يخفض ويرفع في المسجد .^(١)

ومثل ذلك عندنا مثل رجل رأى قومًا لم يعرفهم إلا بالوجوه هكذا ، فتعرف أحوالهم ، فوصف له رجلاً رجلاً ، فقيل له : أما هذا الواحد فهو عالم لا يوجد له في الدنيا نظير لتبحره في العلم ، فعظم في عينه ، وأخذ من قلبه شعبة .

(١) هذا يشير إلى قول الرسول ، صلى الله عليه وسلم : « الدين المعاملة » .

ثم قال له : هذا الرجل الآخر غنى ، لا يوجد له في الغنى
نظير ، فعظم في عينه ، وأخذ من قلبه .

ثم قيل له : وهذا الآخر كريم ، لا يوجد له في الكرم
نظير ، فعظم في عينه ، وأخذ من قلبه ، وقيل له : هذا الآخر
صانع الأشياء ، لا يوجد له نظير في كل صناعة ، فعظم في
عينه ، وأخذ من قلبه وقيل له : وهذا الآخر كفيل ، يكفل
الأرامل والأيتام ، والضعفاء والفقراء ، لا يوجد له نظير في
رأفته ورحمته ، فعظم في عينه وأخذ بقلبه .

ثم قيل له هذا الآخر شكور ، عارف بالحقوق ، إن أتيت
أدنى شيء شكرك الكثير ، ونشر عليك الجميل ، فعظم في
عينه ، وأخذ من قلبه ، ثم قيل له : ولهذا مملكة وعز ومنعة
وسلطان ، قد ملك المشرق والمغرب ، فعظم في عينه ، وأخذ
من قلبه .

ثم قيل له : وهذا قوى لا يُطاق ، له قوة ألف رجل من
الرجال ، فعظم في عينه ، وأخذ من قلبه ، فكل رجل منهم
يوصف بواحدة من هذه الخصال ، يأخذ من قلبك شعبة ،
ويعظم في عينك شأنه . وقبل ذلك لم يكونوا على قلبك
هكذا .

فلو أن هذه الخصال كلها جُمعت في رجل واحد ، لكان يعظم في عينيك ، ويكبر شأنه في صدرك ، وتعظم منزلته عندك ، ويأخذ بقلبك كله ، فهذه الأشياء لو اجتمعت في رجل واحد كانت عارية ، وهى عطاء من ربه .

فعندئذ لا يكون من ملكه رأس إبرة ، وهو مخلوق يفنى وييل ، فكيف بالعالم الذى لا يشبه علمه وغناه ، وجوده وكرمه ، وحلمه ومجده ، وبهاؤه وجمالته ، ورحمته ورأفته ، وقوته وقدرته ، وسلطانه وبصره بالأشياء - شيئاً مما عند الآدميين ، وإنما اتفقا بالاسم .

فأما الأشباه فتعالى ربنا ، رب العالمين عن أن يشبهه شيء من خلقه ، فإذا عرفت هذا من ربك فكيف يكون على قلبك أموره ، ووعدته وووعيده ، وضمانه وكفالته وقوته ؟

فمن استنار قلبه بالمعرفة سكن قلبه ، واطمأن إلى ربه ، ووثق بقوله ، فعظمت منزلة المؤمنين عند الله تعالى ، حين قبلوا الإيمان بالجملة ، ثم استأداهم الوفاء به عند النوائب ، فمنهم من وقى ، ومنهم من سقط ، وبقي في الطريق ، فأظلم عليه الهوى ، ووقع من التخليط في الذنوب .

ومنه ما حذر الله صفيه داود عليه السلام ، فقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (١) .

فالإنسان مطبوع على سبعة أخلاق : على الغضب ، والرغبة ، والرغبة ، والرغبة ، والشهوة ، والغفلة ، والشك ، والشرك . فالخلق كلهم أقرؤا بأن الله تعالى فطر الناس عليها .

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ * قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن يَدَّعِي مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ

(١) سورة ص - من الآية رقم ٢٦ .

(٢) سورة المؤمنون - الآيات ٨٤ - ٨٩ .

وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ ۚ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿١﴾ .

﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢) .

فأقروا له تعالى بالربوبية من غير عقل ، ثم أشركوا به غيره في ملكه ، فقال تعالى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (٣) .

فأقروا بالربوبية ، ثم اشركوا فيه ؛ لأنهم نطقوا من قلب مظلم ، وقد ضرب الله تعالى لهم مثلاً في كتابه فقال : ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ (٤) .

(١) سورة العنكبوت - الآية رقم ٦١ .

(٢) سورة العنكبوت - الآية رقم ٦٣ .

(٣) سورة يوسف - من الآية رقم ١٠٦ .

(٤) سورة البقرة - من الآية رقم ٢٠ .

وقال : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴾^(١) .

فأقروا له بالربوبية ، ثم غفلوا عنه ونسوه ، فهذا الشك والشرك والغفلة فيه ، ثم الغضب مركب فيه ، والشهوة كذلك .

فالرغبة في النفس من قبل النفس ، والرغبة في النفس من أجل النفس .

والخلق بهذه الصفة من مات منهم ، فإن جهنم موعدهم ، لها سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم ، فإنما قسمت على الأبواب هذه الأجزاء لهذه السبعة الأخلاق .

فكل من غلب عليه خُلُق من هذه الأخلاق ، نُسب إليه وأُلقي في ذلك الباب ، وعذب في ذلك الدَّرَك . وما يُصَدِّقُ ذلك ما جاءنا عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال :

« للنار باب لا يدخل منه إلا من شفى غيظه بسخط الله

(١) سورة البقرة - الآية رقم ١٧ ما عدا الكلمة الأولى (مثلهم) .

تعالى . حدثنا بذلك أبى - رحمه الله - قال : حدثنا عبد الله بن نافع الدينورى ، عن إسماعيل بن شيبه الطائفى ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « مَنْ مَنَّ الله عليه من ولد آدم بالمعرفة وجعل له نورًا يمشى به فى الناس ، كان له وليًا ، يخرج به من الظلمات إلى النور ، وكان ميتًا فأحياه » ووصف ذلك كله فى كتابه ، فقال تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾^(١) .

وقال : ﴿ اللَّهُ وَلِىُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾^(٢) .

وقال : ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَالَهُ مِنْ نُورٍ ﴾^(٣) .
وقال : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾^(٤) .

-
- (١) سورة الأنعام - من الآية رقم ١٢٢ .
(٢) سورة البقرة - من الآية رقم ٢٥٧ .
(٣) سورة النور - من الآية رقم ٣٥ .
(٤) سورة النور - من الآية رقم ٤٠ .

فوصفه إلى آخر الآية وقال : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ ،
يُشْرَحْ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾^(١) . ثم قال : ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٢) إخباراً عن المنة
عليهم ، فلما استنار قلب المؤمن بالنور الذي أعطى ، نطق
لسانه بتوحيده ، وعرف قلبه ربه ، وصدقته في وعده
ووعيده ، فاستسلم وألقى يديه ، فذهب عن الشك والشرك
والغفلة ، فتيقظ وأيقن وأخلص ، وبذل بالغفلة اليقظة ،
وبدل بالشك اليقين ، وبذل بالشرك الإخلاص ، وبقيت فيه
الشهوة والرغبة ، والرغبة والغضب .

وكلما ازداد العبد في إيمانه نوراً وقوة وشعاعاً ، تنقص
من الغضب والشهوة والرغبة والرغبة ، فكل مؤمن على
قدر إيمانه يكون من هذه السبعة باقية فيه ، يغفل عن ربه ،
وتعتريه الظلمة كالشك وليس بالشك ، ولكنه ريبة القلب
واضطرابه وتغيره ، كالشرك وليس بشرك ، ولكنه شرك
الأسباب الموضوعية ، فيتعلق بالأسباب ، ويكون اعتماد القلب
على الأسباب ، وينسى ربه ، لا لأنه يجحده .

(١) سورة الأنعام - من الآية رقم ١٢٥ .

(٢) سورة الأنعام - الآية رقم ١٢٧ .

إذا ذكر أقر ، وإذا نسى تعلق قلبه بالأسباب حتى يفتتن ،
والأسباب مثل الحصن ، يدخل فيه الخائف ، والسلاح يأخذه
فيتقوى ، فيكون اعتماده على الحصن والسلاح ، وينسى ربه ،
وكالدواء ، ليستشفى به ، فينسى ربه في شأن الرزق ، يطلب
ويسعى ويغفل عن ربه حتى يفتتن .

فإذا ذكر لا يعمل فيه ذلك الذكر ، وجميع الخلق
أسباب ، القلب حائل بينه وبين رؤيته ذلك من ربه ، وهو
سبب المعصية والفتنة .

فإذا استنارت معرفته فعملت ، كانت كالشمس تشرق في
قلبه بالأسحار ، ولا ظلمة ولا غبار ، فصارت الأشياء له
معينة ، فتخلص القلب حينئذ من الأسباب إلى ولي
الأسباب .

ومنه قول عيسى بن مريم ، عليه السلام : « لو أن رجلاً
مستكمل الإيمان يهز جبلاً لزال عن مكانه » ومنه قوله لبعض
الحواريين حين أراد أن يلحقه في البحر فيمشى على الماء معه :
« هات يدك يا قصير الإيمان » . ثم مشى به في موج
البحر .

فقال : خفت الموج ؟

قال : نعم .

قال : ألا خفت رب الموج ؟

ومنه قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحَبَّ
لِلَّهِ ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ ، وَمَنَعَ لِلَّهِ ، وَأَعْطَى لِلَّهِ ، وَنَصَحَ لِلَّهِ ، فَقَدْ
اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ » .

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ
صِحَّةَ فِي إِيْمَانٍ ، وَإِيْمَانًا فِي حُسْنِ خُلُقِي ، وَنَجَاحًا يَتَّبِعُهُ فَلَاحٌ ،
وَمَغْفِرَةٌ مِنْكَ وَرَحْمَةٌ وَرِضْوَانًا » .

وفي هذا الباب حديث كثير عن رسول الله ، صلى الله
عليه وسلم .

ومنه قول الحسن البصري - رحمه الله عليه - في تفسير
قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا
كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ ^(١) ، قال : غير مستكمل الإيمان :
﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
(١) سورة الأنبياء - من الآية رقم ٩٤ .

الْأَنْهَرُ خَلِيدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿١﴾ .

أى تطهر من الأسباب ، وهو هذه الأخلاق السبعة ، فهم أهل الدرجات العلى فى جنات عدن ، وهم الصديقون رفقاء الأنبياء .

فمن هاهنا قالوا بزيادة الإيمان ^(٢) ، سموا هذا النور الذى يزداد العبد بربه معرفة به ، إيمانًا كالشمس ، شعاعها الذى يقع بالأرض نسيمه شمسًا ، والذى يطلع فى المجرى نسيمه شمسًا ، لأن هذا منه .

ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من أمتى رجالًا حال بينهم القرئى عن أن يأتوا مُصَلَّاهُمْ ، يمنعهم إيمانهم أن يسألوا الناس ، منهم أويس القرنى ، وفرات بن حباب العجلي » رحمه الله عليهما . حدثنا الفضل بن محمد قال : حدثنا زهير بن حرب ، حدثنا ابن مهدي وعبد الله بن الأشعث ، عن سوار ، عن محارب بن دثار ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك .

(١) سورة طه - جزء من الآية رقم ٧٥ بعده الآية : ٧٦ .

(٢) والإيمان يزيد وينقص - كما قال الكثير من العلماء - قال تعالى فى سورة الأنفال - الآية الثانية - : ﴿ وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ .

فسموا هذا النور إيمانًا ، وذلك جائز في اللغة ، وعلى هذا تأويل قول الحسن رحمه الله : « غير مستكمل الإيمان » ، أى لم يستكمل النور .

فوجدنا التبهر في العلم بالله ، بحسن المعرفة ، يملأ القلب نورًا ، يحرق ذلك النور جميع نيران النفس ، من الشهوات الهاوية في القلب إلا الإخلاص والتَّمسُّكُ ، فلذلك تراه في الآخرة يطفئ نوره نيران الآخرة ، والتمسك على الجسر . وهكذا صفة المؤمن يومئذ على الجسر .

قلنا : كان أصل هذا الأمر والمدار عليه هو الإيمان به ، وحسن المعرفة له كما وصفنا ، من السكون ، والطمأنينة ، والثقة به ، والركون إليه ، على قدر ضعف اليقين ، وقوته ، كما ذكرنا بدئيًا ، امتحن الله تعالى بفرائضه ، وحدوده ، وأمره ، ونهيه ، ونهاهم عن أشياء ، وشهوات تلك الأشياء مركبة فيهم .

وأمرهم بأمور ، فثقل عليهم إتيانها ، وحدَّ لهم حدودًا ، فمد لهم هواهم إلى مجاوزتها ، وإلى التقصير فيها ، والقعود عن إتمامها ؛ ليظهر ما في ضمائرهم ، ومقادير إيمانهم ، في الضعف ، والقوة ، لخلقهم من في السموات والأرض ،

والملائكة ، وسائر الخلق، [حتى ^(١)] إذا رفع بعضهم فوق بعض
فى الدرجات لم ير أحد من خلقه من الملائكة ،
والسموات ، والأرض ، وسائر الخلق أحكامه بين عباده إلا
جميلًا .

وابتلاهم بالطاعة ، وبالحدود ، والفرائض ، والأمر ،
والنهى ، فقال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ
وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوًا أَخْبَارَكُمْ ﴾ ^(٢) . أى يستخرج أسرار
ضمائرهم حتى يكون عذرى يوم القيامة قائمًا ، وأمرى
ظاهرًا ، فلا يرى خلقى منى ذلك إلا حسنًا جميلًا ،
ومعروفًا .

فلما عرف أنهم يضيعون حدوده وفرائضه ، من أجل
الشهوات المركبة فيهم وضعف الإيمان ، وقلة اليقين ، علم أنه
سيكون من هذا الخلق أمور تحدث أسبابها من الهوى ،
والشهوات ، وقلة المعرفة ، بأمور ربه ، وضعف اليقين ،
وزجرهم عن أشياء رحمة منه عليهم ، وتعظيمًا لهم ، لأن من
آمن ، ودخل فى ولايته ، وحزبه ، صار سعيدًا بجنته ، فحرّم

(١) فى الأصل : لكى .

(٢) سورة محمد - الآية رقم ٣١ .

دماءهم وأمواهم وأعراضهم ، بعضهم على بعض ، وحرّم عليهم الغيبة ، والبهتان ، والزور والتجسس ، وسوء الظن ، وهتك الستر ، وطلب العورات ، والجهر بالسوء ، والأذى ، وحرّم عليهم الزنى ؛ لأن فيه الغيرة والأذى بعضًا لبعض ، وحرّم الخمر ؛ لأن فيها الأذى ، وتلف النفس ، وإهلاكها ، وحرّم الربا ، ودل على المواساة ، والتقارض ، وقال : ﴿ وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ ^(١) .

ففى ذلك دليل على حَضُّهم ، ومنع بعضهم من بعض ، وحَضُّهم على البرِّ بعضهم لبعض ، إبقاءً عليهم ، ومرفقاً لهم ؛ لأنهم أهل خاصته وصفوته ، ودعاهم إلى الصلوات الخمس ليظهر أبدانهم ، ودعاهم إلى الزكاة ليظهر أمواهم ، ودعاهم إلى الجمعة ليظهر خطاياهم ، ودعاهم إلى الحج ليعتق رقابهم من عتائم الإثم ، ودعاهم إلى صلة الأرحام ليرحم بعضهم بعضًا فيرحمهم ، ودعاهم إلى الجهاد فيتخذ منهم شهداء ويرفعهم فى الدرجات .

ثم دعاهم إلى نوع آخر من العبادة ، دعاهم إلى بر الوالدين ليقوم بشكرهما من أجل التربية ؛ لأنه يبغض الكفور ،

(١) سورة البقرة - من الآية رقم ٢٣٧ .

ودعاهم إلى الإحسان إلى الجار ، وإلى ذى القربى ، وإلى
الصاحب بالجنب ، وإلى الضيف والمملوك ، وكل هؤلاء أهل
حقوق . ودعاهم إلى الإحسان إليهم ؛ ليكون ذلك شكراً
لهم . فهذه الأشياء كلها عبادة تعبدتهم بها .

فأما أصل الأمر فهو ما وصفته لك في أول الكتاب : أنه
دعاهم إلى إحكام المعرفة حتى يسكنوا إليه ، فقلب العبد من
قبل أن يؤمن أغلف ، وللقب عین ، وآذان . فإذا كان العبد
من خلقه الله تعالى للرحمة ، وسبقت له منه الحسنی ، جعل
له ذلك النور ، كما نطق به الكتاب ، فقال : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ
مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾^(١) . أى بذلك النور ، وهو قوله :
﴿ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾^(٢) .

ولا نرى ذلك النور إلا ما جاءت به الأخبار عن رسول
الله ، صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق الخلق في
ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره ، فقد عَلِمَ من يصيبه ومن
يخطئه ، ثم أخرجهم يوم الميثاق بيضاً وسوداً ، ثم استنطقهم

(١) سورة الأنعام - من الآية رقم ١٢٢ .

(٢) سورة الأنعام - من الآية رقم ١٢٢ .

يومئذ . فبلغنا عن ابن عباس رضى الله عنه ، أنه قال :
 فأقروا له بالربوبية طوعاً وكرهاً وتقية ، فذلك قوله تعالى :
 ﴿وَلَهُ اسْلَمَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾^(١) ،
 حدثنا بذلك عن ابن عمر ، وعن أسباط ، عن السدى ، عن
 أبي صالح ، وأبي مالك ، عن ابن عباس . ثم قال تعالى :
 ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَعَمَاهُ مِنْ نُورٍ﴾^(٢) . وقال :
 ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾^(٣) .

فلما حى القلب بذلك النور صار سميعاً بصيراً . وروى
 عن الحسن - رحمه الله عليه - تفسير هذه الآية : ﴿وَتُنذِرَ
 بِهِ قَوْمًا لَدُنَّا﴾^(٤) . قال : صُمُّ آذَانِ الْقُلُوبِ . وعلى تأويل
 قوله تعالى عندنا : ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾

(١) سورة آل عمران - من الآية رقم ٨٣ .

(٢) سورة النور - من الآية رقم ٤٠ .

(٣) سورة الزمر - من الآية رقم ٢٢ .

(٤) سورة مريم - من الآية رقم ٩٧ .

وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١﴾ . وقال تعالى : ﴿لَيْسَ دَرَمَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٢) .

فالْحَيُّ هو المؤمن ، فلما صار قلب هذا العبد منورًا بما رحمه الله ، وقسم له في سابق علمه ، صار القلب بلا غلاف ، وأذن له ربه بالإيمان به ، قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (٣) .

فذكر هاهنا الإذن للنفس ثم ذكر القلب ، فقال : ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ (٤) . فذكر تعالى فعله بالقلب ماذا فعل ، وذكر فعل النفس أنها قد آمنت ، وبماذا آمنت ، فخرج القلب من الغلاف ، كسحابة انقشعت عن شمس ، فاستنار ، وسمع عن الله تعالى ، وأبصر الغيب ، فصار مجتبي

(١) سورة الأعراف - الآية رقم ١٩٨ .

(٢) سورة يس - الآية رقم ٧٠ .

(٣) سورة يونس - من الآية رقم ١٠٠ .

(٤) سورة الحجرات - من الآية رقم ٧ .

من أهل جباية الله تعالى ، وذلك قوله عز وجل : ﴿هُوَ
أَجْتَبَيْكُمْ﴾^(١) . وصار موسومًا بسمة الله ، وهو ذلك النور
الذي أصابه .

فلما أهينت النفس ، وانقادت للقلب ، قبل القلب ما سمع
عن الله ، وأبصر بالغيب ، وَعَقَلَهُ ، وعزم عليه ، صار
موسومًا بِسِمَةِ الله ظاهراً وباطناً ، فقيل : هذا مؤمن ، وهذا
مسلم ؛ لأنه قد آمن ، ولأنه قد أسلم وجهه إلى الله ، وَمَنْ
أسلم الوجه إليه ، فقد أسلم إليه بِكُلِّهِ ؛ لأن الوجه اسم
جامع .

ألا ترى أنك تقول في اللغة للسائلين بين الناس : رأيت
وجوهاً كثيرة ، فدخل فيه البدن كله . والمؤمن إذا آمن وقُبِلَ
أمره ، فإنه يعمل على تسليم نفسه إليه ؛ لأن إيمانه إنما آمن
بأنه ربه ، فرقته له ، وجميع ما ملكت يمينه له ، وقد سلم
إليه نفسه وملك يمينه ، فهو المسلم ، قال تعالى : ﴿هُوَ سَمُّكُمْ
الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾^(٢) . أى فى اللوح المحفوظ ﴿وَفِي

(١) سورة الحج - من الآية رقم ٧٨ .

(٢) سورة الحج - من الآية رقم ٧٨ .

هَذَا ﴿﴾ يعنى : فى القرآن ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ .

أى : إذا جاءت الأنبياء ، فسئلوا عن تبليغ الرسالة ، فادعوا البلاغ ، فأنكرت الأمم ، وقالوا : لم تبغنا رسلك أمرك ، فنسلم أنفسنا وملك يميننا لك ، ونأتمر بأمرك ، فأنتم أهل تسميتى ، الذين سميتكم مسلمين ، بأنكم قد سلمتم إلئى أنفسكم فيشهد لكم بذلك الرسول ، الذى بعثته بالمقام المحمود ، الذى يغبطه الأولون والآخرون ، فبلغنا فى الحديث : « وتشهدون أنتم لرسلى على أممها التى لم تسلم لى نفسها ، فهذا صرتم شهداء رسلى ، وحبتى على خلقى » . فلما فتح القلب عينه أبصر وسمع لمّا حَبَبَ إليه الإيمان ، أى وصل إلى حبة قلبه ، وتزين ذلك فى قلبه ، انقاد لربه ، ألقى بيديه إلى ربه مسلماً ، جاءت النفس بظلمها وظلمتها ، وهى الهوى ، فوقفت بين يدى القلب ، صار على القلب كالغشاء أو كالسحابة المظلمة ، فقيل غفلة ، والأول كانت غفلة .

فلما ذهبت الغفلة ، حيث جاء النور ، وبقي الهوى غفلة وقد نجد مثل هذا كثيراً فى اللغة ، يقال : جبد وجذب وكشر

وشكر ، وزرق ورزق ، ومجر ومرج ، وحجج وجحد ،
وعلم وعمل ، وغرف وغفر ، ومثل هذا كثير^(١) ، كلاهما
مرجعهما إلى معنى واحد ، ولكنهما اشتقّا فاستعمل هذا في
نوع ، وهذا في نوع ، والآخر في نوع . وإن كان القلب
يختلف على فعل وعفل ، فإن الاشتقاق من معنى واحد ،
وتخولف في القلب للاستعمال في نوعه ، ليُعرف باختلاف
القلب نوعه الذى عنى به .

وكذلك الفعل أيضًا مثلهم ، فقليل : كشر إذا تبسم فبدت
أسنانه ، وإذا بدا لقلبه فرأى نعمة إليه من الأسباب شكر ؛
لأن النعم قد بدت له ، وكذلك قوله : رزق .

هذا فيما بدا إليه من الأسباب في مطعمه ومعاشه ، وهذا
فيما بدا إليه بالسبق ، فيرزق به .

وكذلك يقال في الحربة والمزراق ، فكذلك الغفلة
والغلفة ، معناه عندنا أن الغلفة في وقت الكفر ، والكفر هو
الغطاء^(٢) ، فإذا ذهبت تلك الغلفة ، ورفع الله الغطاء بمجىء

(١) راجع ابن منظور : لسان العرب .

(٢) انظر الفيروزابادى و « بصائر ذوى التمييز » ج٤ ص ٣٦١ .

النور ، بقيت الغفلة ، وهو الهوى ، قائماً فيما بينه وبين ربه .

وكان للقلب حجابان : حجاب غطى ظلمة الكفر ، فإذا ذهب الغطاء بقي الحجاب الآخر قائماً بينه وبين ربه تعالى ، فهو الذى يغفله وينسيه ، وهى التى تسمى غفلة ، فلما صارت هذه النفس قائمة بظلمة هواها ، وتلظى نيران شهواتها بين قلب العبد وبين ربه ، بعد أن أسلم له وانقاد ، واعترف وقبل أمره وعزم عليه ، فهو يتعاصى عليه وتستأديه الشهوات التى حرمت عليه ، وتزلزله فى شأن الرزق وتوسوس إليه فى نوائبها وأمورها على تدبيرها المنكوس ، وجهلها المظلم ، والرب الرحيم الرعوف به قد اختار له غير ذلك ، مما هو أرفق به وأبر له وأزين به وأفضل .

فقد شغل القلب النظر إلى ما يبدو له من تضاربه وتدبيره له ، فحديث النفس وسوسة تدبيرها ، وخيئته ومنته ، وأشقته وألته ، وأظلمت عليه الصدر ، وهى سلاح عدوه الشيطان الرجيم ، بها يخدعك ويوسوس لك ، ويزين لك ، ويعين هواك عليك .

فلذلك قيل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن
أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ » ^(١) .

فلما كنت بهذه الحالة وقد أَلْقَيْتَ بِيَدَيْكَ إِلَى اللَّهِ سَلَمًا ،
بِمَا جَعَلَ فِي قَلْبِكَ ، أَمَرَكُ بِمُجَاهَدَتِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى :
﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ ^(٢) .

وَأُنْبَأُكَ فِي كِتَابِهِ شَأْنَ النَّفْسِ وَالْهَوَى ، فِي آيٍ كَثِيرَةٍ ، مِنْهَا
مَا ذَكَرَ عَنْ قَوْلِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حَيْثُ قَالَ : ﴿ وَمَا
أُتِرْتُ نَفْسِي إِلَّا النَّفْسَ لَأَمَّارَةٍ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ
رَبِّي ﴾ ^(٣) .

وَحَيْثُ قَالَ لِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي
الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(٤) الْآيَةُ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ

(١) ذكره النبهاني في الفتح الكبير ج ٣ ص ٦٠ عن ابن مالك بن الأشعث ،
وكذلك ذكره صاحب فيض القدير ج ٥ ص ٣٦٧ .

(٢) سورة الحج - من الآية رقم ٧٨ .

(٣) سورة يوسف - من الآية رقم ٥٣ .

(٤) سورة ص - من الآية رقم ٢٦ .

خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿١﴾ . الآية .

فأمره بالمجاهدة ، حق المجاهدة ، ثم أيدنا وشجعنا فقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١) . فسماه محسنًا ، ووعدته أن يكون معه ، ومن كان الله معه فهو المنصور لا يُغلب .

فوعدك على المجاهدة حق جهاده ، أنه هو الذى يلى هدايتك سبيله ، هذا ثوابه فى العاجل ، فكيف بثوابه فى الآجل ، إذا قدمت عليه غداً بالمجاهدة وبثمرة المجاهدة ؟ فإن الهداية صارت ثمرة المجاهدة ، وبالهداية نلت ولاية الله تعالى ، وبولاية الله نلت قربة الله وزلفاه ، ثم قال تعالى : ﴿هُوَ أَجَبُّكُمْ﴾^(٢) . أى كما جعلتك من أهل جبايتى ، جعلت لك نورًا ، وفتحت عينى قلبك ، وفتحت أذن قلبك حتى عرفتنى .

فالآن جاهد فى ذاتى هواك وشهوات نفسك ، حتى يظهر انقيادك لأمرى ، ويعز دينى ، وتعلو طاعتى ، والمجاهدة على

(١) سورة النازعات - من الآية رقم ٤٠ .

(٢) سورة العنكبوت - الآية رقم ٦٩ .

(٣) سورة الحج - من الآية رقم ٧٨ .

قالب المفاعلة ، والمفاعلة لا تكون إلا من اثنين ، إلا فى النادر فى الكلام ، فأما العام فإنه من اثنين ، فكأنه قال : ﴿وجاهدوا فى الله حق جهاده﴾ .

وقال فى آيه أخرى : ﴿واعتصموا بالله﴾ ، أى امتنع من شر النفس وحرىها وعداوتها بالله تعالى ، فكأن النفس عدوك ، يرمىك بسهم الشهوة ، والهوى يقويها وهى مظلمة ، لا تستعين بالله عليك ، وأنت ترميها بسهم المعرفة والعقل ، وتستعين بالله تعالى عليها ، فأنت المنصور ؛ لأنك بالله تجاهدها ، وهى تجاهدك لا بالله .

فذلك ربك على الاعتصام منها به ، ثم وعدك النصر ، وشجعك على المجاهدة فقال : ﴿هو مولاكم﴾ أى يلى نصركم ، ثم قال : ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾^(١) ، ينبئك وهو يملك كثرة النصرة ، ومتابعها .

فإذا تركت الاعتصام به خذلك ، وخذلانه أن يمنع النصرة ، فإذا منع النصرة فجاهدت النفس ، رمتك بسهم الشهوة والهوى ، فرميتها بسهم المعرفة والعقل لم تغلبها

(١) سورة الحج - من الآية رقم ٧٨ .

وغلبتك ؛ لأن العلم والعقل والمعرفة في القلب ، والهوي والشهوة خارج من القلب ، قائم بين القلب وبين الرب ، قد أظلم على سمعك وبصير عيني قلبك بغشاوته ، فسجن ما في القلب ، وغلب على القلب ، فصار بمنزلة سراج في بيت ، والسراج في الفخار وعليها غطاء ، فاليبت مظلم . .

فإذا انكشف الغطاء ، أبصر ما في البيت ، مما يضر وينفع ، فإذا جاهدت النفس ، فاعتصامك به في ذلك ، ذكرك إياه بأنك لا تستطيع دفع هذا إلا به ، واستغناك به ، هو الذى يغنيك ويعينك ، فينصرك ، وكيف لا يعينك وقد أمرك بأن تقول : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ^(١) ؟

فيأمرك بالقول بهذا حتى تسأله ثم لا يجيبك ، وقال تعالى : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ ^(٢) . ثم لا يجيب ولا يكشف ، تعالى الله عن ذلك ، وإذا نسيته في ذلك الوقت، منع النصرة، لتركك ذكره ، ولاقتدارك في الأمر .

• (١) سورة الفاتحة - الآية رقم ٥ .

• (٢) سورة النمل - من الآية رقم ٦٢ .

وكيف لا يعاقبك بمنع النصرة وقد نسيتَه ، واقتدرت في أمره ، وقد أمرَك بأن تقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فمن اقتدر في أمره ، والأمر كله لله ، والخلق لله ، والقدرة لله ، عوقب بأن يخذل ، وعُرف بالخذلان أن اقتداره كان خطأ ، وأنه لا يقدر إلا به ، وقال تعالى : ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (١) .

النصرة

قال له قائل : فما النصرة ؟ هل يمكن أن تُوصف ؟ فقال : إن نور المعرفة في القلب ، حتى يخرج إلى عين القلب ، والهوى قائم على القلب حجاباً ، فإذا جاهد العبد هذا الهوى حق المجاهدة ، وحق جهاده هو غاية طاقة العبد ، فنصرته أن يهديه سبيله ، وهو أن يجعل له طريقاً

(١) سورة آل عمران - من الآية رقم ١٦٠ .